
مركز دراسات الوحدة العربية

المدينة في العالم الإسلامي

المجلد الأول

تحرير

سلمى الخضراء الجيوسي

ريناتا هولود   أتيليو بيتروشيولي   أندريه ريمون

الفهرسة أثناء النشر - إعداد مركز دراسات الوحدة العربية
المدينة في العالم الإسلامي/ محرر عام سلمى الخضراء الجيوسي؛ محررون خاصون
ريناتا هولود، أتيليو بيتروشيولي وأندريه ريمون.
٢ مج.
محتويات: مج ١.
يشتمل على فهارس.
ISBN 978-9953-82-671-4 (vol. 1)
ISBN 978-9953-82-670-7 (Set)
١. المدن الإسلامية. ٢. المدن العربية. ٣. الآثار الإسلامية. ٤. بغداد - تاريخ. ٥. فاس - تاريخ. ٦. تونس - تاريخ. ٧. القاهرة - تاريخ. ٨. القدس - تاريخ. ٩. حلب - تاريخ. ١٠. بورصة - تاريخ. ١١. طرابلس - تاريخ. ١٢. الجزائر - تاريخ. ١٣. كرمان - تاريخ. ١٤. إسطنبول - تاريخ. ١٥. بُخارى - تاريخ. ١٦. سمرقند - تاريخ. ١٧. شيراز - تاريخ. ١٨. أصفهان - تاريخ. ١٩. أغرا - تاريخ. ٢٠. حيدر آباد - تاريخ. ٢١. صنعاء - تاريخ. ٢٢. هَرَر - تاريخ. ٢٣. الرباط - تاريخ. ٢٤. سلا - تاريخ. أ. العنوان. ب. الجيوسي، سلمى الخضراء (محرّرة). ج. هولود، ريناتا (محرّرة). د. بيتروشيولي، أتيليو (محرّر). هـ. ريمون، أندريه (محرّر).
953

العنوان الأصلي بالإنكليزية
The City in the Islamic World (vol. 1)
edited by Salma K. Jayyusi [et al.]
(Leiden; Boston, MA: Brill, 2008)

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص.ب: ٦٠٠١ - ١١٣
الحمراء - بيروت ٢٠٣٤ ٢٤٠٧ - لبنان
تلفون: ٧٥٠٠٨٤ - ٧٥٠٠٨٥ - ٧٥٠٠٨٦ - ٧٥٠٠٨٧ (٩٦١١+)
برقياً: «مرعربي» - بيروت
فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (٩٦١١+)
email: info@caus.org.lb
Web Site: <http://www.caus.org.lb>

الطبعة الأولى
بيروت، أيار/ مايو ٢٠١٤

الفصل الثامن

المدن الهندية

مارك غابوريو[*]

يقدم هذا الفصل عرضاً عاماً للمدن الإسلامية الهندية. مصطلح الهند مأخوذ هنا بالمعنى التاريخي الكامل لشبه القارة الهندية أو جنوب آسيا ككل، التي قسّمت بعد عام ١٩٤٧ إلى سبع وحدات سياسية[1]، ثلاث منها فقط موجودة في أطراف شبه القارة، يحكمها المسلمون الآن، هي الباكستان وبنغلادش والمالديف؛ أما الداخل، الهند والنيبال، فمحكوم من الأغلبية الساحقة للهندوس، في حين يحكم البوذيون سري لانكا وبوتان. نسبة المسلمين، المتزايدة، إلى إجمالي السكان في شبه القارة الهندية هي اليوم نحو ٢٩ في المئة. ويبلغ مجمل عدد السكان المسلمين عام ٢٠٠١ نحو ٤٠٠ مليون شخص؛ وهم يمثّلون ثلث عدد سكان كلٍ من البلدان الثلاثة الكبرى: فهم ٩٧ في المئة من تعداد السكان في الباكستان، و٩٠ في المئة في بنغلادش و١٣ في المئة في الهند. وفي البلدان الصغيرة يمثل المسلمون ٧,٥ في المئة في سري لانكا، و٣ في المئة في النيبال وبوتان، ونحو ١٠٠ في المئة في المالديف. وإذا كان المسلمون حالياً هم سياسياً على الهامش في شبه القارة؛ فهم لم يكونوا كذلك في القرون الستة الماضية التي سبقت دخول البريطانيين، والتي كرس لها هذا الفصل أساساً.

(*) مدير متقاعد في المركز الوطني للبحوث العلمية (CNRS) ـ فرنسا.

(١) Annmeri Schimmel, *Islam in the Indian Subcontinent* (Leiden: E. J. Brill, 1980), and Marc Gaborieau, ed., *Islam et societé en Asie du Sud*, Collection Purushartha; 9 (Paris: EHESS, 1986), pp. 7-8.

أولاً: السياق التاريخي: ستة قرون من السيطرة الإسلامية

إن تهميش الإسلام مردّه هنا إلى الغزو البريطاني في نهاية القرن الثامن عشر، وأكثر من ذلك إلى تقسيم شبه القارة الهندية عام ١٩٤٧. لكن يجب أن نبقي في أذهاننا أن الأسرة الحاكمة المسلمة بقيت مسيطرة لستة قرون قبل ذلك الوقت. بعد الاختراقات الأولى للفاتحين والتجار المسلمين على الساحل الغربي بين القرنين السابع والعاشر، اتخذت الأسرة الغُزنوية التركية قاعدة لها في ما يعرف بأفغانستان اليوم، وبالتالي لتؤسس في القرنين الحادي عشر والثاني عشر معقلاً ثابتاً على التراب الهندي، في حوض «الإندوس» ـ الإقليم الذي تشغله الباكستان اليوم ـ مع عاصمته الجنوبية في لاهور. وكانت الخطوة الحاسمة التالية إخضاع دلهي، في حوض نهر الغانج، في نهاية القرن الثاني عشر، التي فتحت الطريق لأخذ شبه القارة كلها على نحو سريع في قرن أو أكثر قليلاً، وكرست السيطرة الإسلامية التي مارستها الأسرتان الحاكمتان التركية والأفغانية واستمرت حتى مجيء البريطانيين. خلال هذه المرحلة كانت الهند جزءاً مكملاً لدار الإسلام؛ وبعيداً من أن تكون على هامش العالم المسلم، كان للهند وزن سكاني واقتصادي وثقافي، زاد بالتأكيد بعد تدمير بغداد على أيدي المغول.

هذا الفصل مكرس للقرون الستة من الهيمنة الإسلامية في الهند، إذ إن القليل جداً هو المعروف عن التاريخ الحضري للهند الإسلامية قبل تأسيس سلطنة دلهي مع بداية القرن الثالث عشر. يمكن تقسيم هذه الفترة الممزقة الطويلة إلى أربع مراحل: الحلم بإمبراطورية هندية مسلمة موحدة لم يتحقق أبداً باستثناء فترة قصيرة تحت حكم الإمبراطور المغولي أورانغزب في النصف الثاني من القرن السابع عشر؛ ومحاولتا التوحيد السياسي ـ لسلطنة دلهي والإمبراطورية المغولية على التوالي ـ وكانت تعقب كل منها حقبة من التفسخ.

المحاولة الفاشلة الأولى لتوحيد الهند قامت بها سلطنة دلهي منذ بداية القرن الثالث عشر إلى النصف الثاني من القرن الرابع عشر[٢] وأنتجت في أحسن أحوالها «مجموعة ممالك» من الهندوس والمسلمين على السواء[٣] كان ولاؤهم للمركز متزعزعاً وغالباً ما كانوا يتمردون.

---

(٢) Marc Gaborieau, «L'Islamsation de l'indeet l'Asie orientale,» in: Jean-Claude Garcin [et al.], eds., *Etats, Societies et cultures du monde musluman medieval, X^ème^-XV^ème^ siècle: Tome 1: L'evolution politique et sociale* (Paris: Presses Universitaires de France, 1995), pp. 431-459, and Peter Jackson, *The Delhi Sultanate: A Political and Military History* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1999).

(٣) Jackson, Ibid., p. 87.

أنهت سلسلة ثورات كهذه منذ عام ١٣٣٨ هذا البناء السياسي وبدأت فترة ثانية من السلطنات الإقليمية المستقلة التي استمرت إلى منتصف القرن السادس عشر[٤]. انطلقت المبادرة من المقاطعة الشرقية في البنغال، في دلتا الغانج، التي أصبحت مستقلة عام ١٣٣٨. ثم أسس حاكم الدَّكَّن، على السهل الجنوبي، السلطنة البهمنية التي انقسمت في ما بعد إلى خمس ممالك مختلفة: بيدار، وبيرار، وأحمد نغر، وبيجابور، وغولكوندا؛ وإلى جنوب هاتين السلطنتين ازدهرت المملكة الهندوسية القوية فيجاياناغار (١٣٣٦ ـ ١٥٦٥). وعلى الساحل الغربي من مقاطعات الخاندش، غوجارات، أصبحت السِند مستقلة أيضاً. أما الأرض الداخلية في الشمال الهندي فقد قسّمت بين مالْوا غرب دلهي، وجَوْنبور في الشرق، وأخيراً دلهي نفسها التي كانت جزءاً من الأقاليم الإثني عشر في السلطنة حيث كانت الهند المسلمة مقسمة؛ وبعد الأسرة الحاكمة سيّد الزائلة، أصبحت تحت حكم الأسرة الحاكمة الأفغانية القوية، اللودية التي نقلت العاصمة إلى أغرا عام ١٥٠٥. ويمكن اعتبار نهب دلهي على يد تيمورلنك عام ١٣٩٨ مؤشراً لنهاية التفسخ في سلطنة دلهي. ومع ذلك يجب عدم اعتبار مرحلة السلطنات المستقلة مرحلة انحطاط أو تدهور، بل هي منطلق لزيادة المنافسة الاقتصادية والثقافية، التي أنتجت تطوراً لمراكز مدينية جديدة مع زيادة الإنتاج المتقن.

المحاولة الثانية الناجحة للتوحيد السياسي كانت على يد المغول في القرن السادس عشر[٥]. كان عليهم تأكيد أنفسهم بنجاح ضد الأسرتين الحاكمتين الأفغانيتين القويتين في الشمال (اللوديون والسوريون) والتعامل مع سيطرة البرتغاليين على البحر. لم يكن للممثلَين الأولَين لهاتين الأسرتين الحاكمتين لآسيا الوسطى ـ بابُر الذي أخضع في البدء دلهي عام ١٥٢٦ وابنه همايون الذي نفي لفترة طويلة إلى إيران على يد أسرة سور ـ إلا تأثير محدود في الهند. فقط مع الإمبراطور أكبر (١٥٥٦ ـ ١٦٠٥) بدأت محاولة البناء الإمبراطوري الجديد بجهد لبناء دولة مركزية وإخضاع شبه القارة لحكمه. ثم أكمل العمل إبنه جهانغير (١٦٠٥ ـ ١٦٢٧) وحفيده شاه جَهان (١٦٢٨ ـ ١٦٥٨)، باني تاج محلّ، وبلغ ذروته في الحملات الطويلة لأورانغزب (١٦٥٨ ـ ١٧٠٧) في الدَّكَّن التي جلبت تحت السلطة المغولية آخر السلطنات المتمتعة بالحكم الذاتي

---

(٤) Gaborieau, Ibid.

(٥) Marc Gaborieau, «Villes de Toile et villes de pierre: Les capitals Mongoles etainent-elles des camps?,» dans: Pierre Clement, Sophie Charpentier et Charles Goldblum, *Cités d'Asie*, cahiers de la rescherche architectural, nos. 35-36 (Marseille: Editions Parentheses, 1995b), pp. 15-34, and John F. Richards, *The Mughal Empire: The New Cambridge History of India* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1993), p. 5.

في بيجابور وغولكوندا، لكنه فشل في ضم المناطق في جنوبها وكان عليه أن يواجه تصاعد سلطة الهندوس الماراثيين الذين ساهموا في سقوط الإمبراطورية. وتبقى درجة المركزة في الإمبراطورية المغولية موضوعاً قابلاً للنقاش: الرأي التقليدي ـ الذي جاءت به وأشاعته مدرسة أليغار ـ حول حكم استبدادي ضريبي مركزي[٦] جرى نقده مؤخراً[٧]. يبقى أن الازدهار الاقتصادي وأنشطة البناء للأسرة الحاكمة ساهمت على نحو كبير في تشكيل المشهد الهندي المديني الذي يمكن رؤيته حتى اليوم.

بموت أورانغزب عام ١٧٠٧، بدأ تفسخ الإمبراطورية، وانهارت الإدارة المركزية في أقل من ثلاثة عقود، مفسحة في المجال لكيانات إقليمية متمتعة بالحكم الذاتي[٨]. إما كانت تُحكم من أسر الحكّام المسلمين السابقين للمقاطعات الذين نصبوا أنفسهم كـ «نوّاب» ـ ممثلين للإمبراطور؛ وتلك كانت الحالة في قلب الهند وشرقها مع إمارات عوض والبنغال وكارناتيك وحيدر أباد، تضاف إليها عدة ممالك أسسها مغامرون أفغان[٩] موزعة في شمال الهند وغربه، مثل رامبور وفرّوخ أباد وتونك وبوبال؛ وإما كانت تُحكم أن تُحكم من غير المسلمين، وهذه في الغالب حالة الهند الغربية مع الماراثيون في الجنوب، والجاتيون في غرب دلهي، والسيخ في ما يعرف بالباكستان اليوم. خلال هذه العقود ـ المسماة الفترة «النوّابية» ـ كانت الإمارات متمتعة بالحكم الذاتي السياسي، وتحافظ على الولاء الشكلي للإمبراطور المغولي الذي كان حكمه يتداعى في قصره «الحصن الأحمر» في دلهي. وكانت شركة الهند الشرقية البريطانية، بأخذها أول تملك في الهند وبانتزاعها النفوذ من نوّاب «بيغال»، تتبع الإمبراطور نظرياً وظلت كذلك حتى عام ١٨٥٧ حين حلّت الملكة فيكتوريا بدلاً من المغول إمبراطورة على الهند. هذا الطور الأخير من الهيمنة الإسلامية ـ مقارنة بالفترة المبكرة من السلطنات الإقليمية ـ لا يمكن اعتباره خطأ كطور انحطاط[١٠]؛ إذ شهد تطوّراً اقتصادياً مهماً؛ فقد حفّزت المنافسة بين الكيانات السياسية الجديدة، في ظل إمكانيات مالية حقيقية، أنشطة البناء والإبداع الفني

---

(٦) Ishtiaq Husain Qurechi, *The Administration of the Mughal Empire* (Karachi: University of Karachi, 1966), and Irfan Habib, *The Agrarian System of Northern India, 1526- 1707*, 2nd rev. ed. (New Delhi: Oxford University Press, 1999).

(٧) Muzaffar Alam and Sanjay Subrahmanyam: «L'Etat moghol et sa fiscalite,» *Annals HSS*, no. 1 (1994), pp. 189-217, and *The Moughal State, 1526-1750* (New Delhi: Oxford University Press, 1998), pp. 12-16.

(٨) Muzaffar Alam, *The Crisis of the Mughal Empire in Mughal India: Awadh and the Bunjab, 1707-1748* (New Delhi: Oxford University Press, 1986).

(٩) Jos J. L. Gommans, *The Rise of the Indo-Afghan Empire, 1710-1780* (Leiden: E. J. Brill, 1995).

(١٠) Alam and Subrahmanyam, *The Moughal State, 1526-1750*, pp. 55-68.

التي استمرت لزمن طويل بعد ترسيخ البريطانيين هيمنتهم على شبه القارة الهندية بين عامي ١٧٦٥ و١٨١٨.

كانت المرحلة البريطانية، بشكل ما، امتداداً للمرحلتين المغولية والنوّابية؛ إذ استمرت عدة مدن بالإزدهار، كلاهور وكراتشي، المدينتين الكبريين في الباكستان اليوم، ودكّا[(١١)]، العاصمة الحالية لبنغلادش. في الهند يمكن إعطاء مثال على عواصم أقاليم المغول مثل باتنا والله أباد، أو على المدينة النوّابية مثل لكناو. لكن الحالة الأكثر إثارة للاهتمام هي دلهي، العاصمة الإسلامية منذ نهاية القرن الثاني عشر، التي اختيرت من جديد من جانب البريطانيين لتكون موقع العاصمة العملاقة الجديدة للإمبراطورية، ثم أنشئت نيودلهي عام ١٩٣١، على أنقاض بعض العواصم الإسلامية السبع المجاورة السابقة، ولتكون قريبة من عاصمة المغول في شاه جهان أباد، التي كانت آنئذ مطابقة في تصميمها لدلهي القديمة. أنشأ البريطانيون أربعة أنواع من المدن الجديدة على الأقل:

النوع **الأول** «عواصم الرئاسات الثلاث» (تقسيمات إدارية أصغر): بومباي ومدراس وكالكوتا، والأخيرة كانت العاصمة الإمبراطورية منذ عام ١٧٦٥ حتى عام ١٩٣١. وهذه كانت في الوقت نفسه مدناً إدارية وصناعية وموانئ تجارية فتطوّرت بسرعة إلى مدن عملاقة؛ وأصبحت أكبر تكتل سكني في شبه القارة مع كراتشي (التي كانت عاصمة الباكستان منذ عام ١٩٤٧ إلى عام ١٩٥٩) ودكّا (العاصمة الحالية لبنغلادش). والفئة **الثانية** هي «نقاط التواصل»، مدن تجارية وصناعية أنشئت على تقاطع خطوط سكك الحديد الرئيسية، مثل كانبور في شمال الهند في وسط وادي الغانج. و**الثالثة** «معسكرات»، مثال عليها حاميات تطورت لتصبح مدناً متكاملة، مثل روالبيند التي ما زالت مقراً للمراكز الرئيسية للجيش الباكستاني وكانت عاصمة الباكستان بين عامي ١٩٥٩ و١٩٦٩، قبل بناء العاصمة المجاورة إسلام أباد. و**الرابعة** «مدن الاصطياف المشهورة» القائمة على مناطق جبلية منخفضة، حيث كان ضباط القيادة البريطانية يمضون أشهر الصيف الحارة: دارجيلينغ، نينيتال وأشهرهم سيملا[(١٢)] في الهملايا.

لم يغيّر التقسيم والاستقلال عام ١٩٤٧ جوهرياً في النموذج المديني، عدا التطور المذهل للمدن الرئيسية في الباكستان المستحدثة: كراتشي في الجهة الغربية (باكستانية

---

(١١) Sharifuddin Ahmad, ed., *Dhaka: Past, Present, Future* (Dhaka: Asiatic Society of Bangladesh, 1991).

(١٢) O. H. K. Spate, *India and Pakistan: A General and Regional Geography*, 2nd ed. (London: Methuen: E. p. Dutton, 1957), pp. 192-193.

تماماً الآن) ودكّا[١٣] في الجهة الشرقية (عاصمة بنغلادش المستقلة منذ عام ١٩٧١). وكان طموح هاتين الدولتين بناء مدن رأسمالية جديدة على المثال الهندسي ذي الخطوط المستقيمة المتقاطعة: إسلام أباد، والقسم الإداري الجديد من دكّا. وبالرغم من أن مدناً كثيرة مثل دلهي[١٤] وغيرها وصلت بعمرانها الضخم إلى حد مذهل، فإن أغلب السكان في شبه القارة كاملاً ظلوا ريفيين؛ حتى في أكثر بلدان شبه القارة مدينية، الهند، ارتفعت نسبة السكن المديني قياساً على عدد السكان الإجمالي منذ الاستقلال من ١٨ في المئة إلى ٣٠ في المئة لا أكثر.

ثانياً: اعتبارات عامة

خلال فترة الحكم الإسلامية التي انتهت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، كانت الهند تشهد كثافة سكانية، بلغت وفق التقدير الشائع بين ١٠٠ و١٥٠ مليون نسمة في الفترة المغولية[١٥]. وبقي المسلمون أقلية، وكانوا يعرفون أنهم أقلية، لكنهم لم يتركوا أي إحصاءات؛ وقد مثّلوا في أول تعداد سكاني، وفق الإحصاء الرسمي البريطاني بين عامي ١٨٧٢ و١٨٧٤، أقل من ٤٠ في المئة من عدد السكان. ويظن اليوم أن نسبتهم لإجمالي عدد السكان في الفترة المغولية كان نحو ١٥ في المئة (مقابل ٢٩ في المئة حالياً).

وبالرغم من ذلك، فقد ترك المسلمون بصمات واضحة في الحياة المدينية. وبالإجمال، كانت نسبة المسلمين الحضريين أعلى مما كانت عليه لدى الهندوس، ٢٧ في المئة مقابل ١٨ في المئة، تبعاً للإحصاء الرسمي الهندي عام ١٩٦١؛ مع أن ذلك يجب أن لا يخفي حقيقة أن أغلبية المسلمين كانوا ـ دائماً ولفترة طويلة ـ من الريفيين. كان إنشاء سلطنة دلهي حافزاً للنمو المديني ولتطور كبير في عدد سكان المدن. وبالرغم من عدم توافر إحصاءات، فقد وضعت تقارير الرحالة الأجانب عدد سكان المدن المغولية بمئات الآلاف لكل منها؛ واستناداً إلى التقارير تلك وإلى وثائق الضرائب، يقدّر مؤرخو جامعة أليغار الإسلامية أن نسبة السكان المدينيين (الهندوس والمسلمون على

---

(١٣) Ahmad, Ibid.

(١٤) Veronique Dupont, Emma Tarlo and Denis Vidal, eds., *Delhi: Urban Space and Human Destinies* (Delhi: Manohar, 2000).

(١٥) Shireen Moosvi, *The Economy of the Mughal Empire c. 1595: A Statistical Study* (New Delhi: Oxford University Press, 1987), pp. 393-406.

السواء) كانت نحو ١٥ في المئة[١٦]. هذه التخمينات هي الوحيدة المنطقية المتوافرة؛ وسوف نناقش مصداقيتها في الجزء الرابع من هذا الفصل.

في التصورات الشعبية، التي انعكست في اللغة العامية الحديثة مثل الهندية، ترتبط الظاهرة المدينية بالإسلام. فالمفردات التي تشير إلى القرى (غون)، وإلى التقسيمات الإدارية الدنيا (بارغانا) هي مفردات محلية هندية؛ بينما المراكز الرئيسية الإدارية التابعة (القصبة)، والمناطق التجارية (البازار) والمدن الكبرى (شاهار) أخذت كلها من العربية والفارسية. في القرن العشرين فقط، ومع جهود الهندوس لنزع إسلامية اللغة، استُبدلت كلمات شائعة مثل «شاهار» بكلمات سنسكريتية تعليمية مثل «ناجار» لتعني مدينة. ومع ذلك، فهذا لا يعني أن الحضارة الهندية تجاهلت المدينية قبل قدوم الإسلام. على العكس، حين بلغ المسلمون الهند، كان هناك تقليد عمره آلاف السنين في بناء المدن - وعلى صلة ربما بحضارة بلاد ما بين النهرين: المدينة الراهنة باتنا في بيهار هي في موقع باتاليبوترا، عاصمة الإمبراطور البوذي أشوكا في القرن الثالث قبل الميلاد، وقد وصفها الرحالة اليونانيون بالتالي: هناك نظرية تعليمية عن بناء المدن في التقاليد السنسكريتية، المبدأ الذي ما زال ممكناً ملاحظته ضمنياً في مدن القرون الوسطى في النيبال وفي جنوب الهند. والسؤال الذي سيناقش في هذا الفصل سوف يكون: كيف أثّرت الأنماط الهندوسية القائمة في تطوير الحياة المدينية في الحقبة الإسلامية؟

يستند معظم ما كتب عن المدن الإسلامية في الهند المسلمة إلى سجلات الرحالة الأجانب، أو إلى دراسات وأوصاف من الحقبة الاستعمارية؛ فالمصادر الهندو - فارسية الأولية كانت غير دقيقة[١٧] عدا حالات معينة مثل دلهي، التي درست على نحو مستمر دائماً[١٨] وبصورة أدق في خلال الفترة المغولية[١٩] ومدينة الدَّكَّن في فيروز أباد[٢٠].

---

(١٦) المصدر نفسه، ص ٣٠٥.

(١٧) Hamida Khatoon Naqvi: *Urban Centres and Industries in Upper India, 1556-1803* (London: Asia Publishing House, 1968), and *Urbanization and Urban Centres under the Great Moghals* (Simla: Indian Institute of Adavanced Studies, 1972).

(١٨) Percival Spear, *Delhi: Its Monuments and History*, 3rd ed. (New Delhi: Oxford University Press, 1994).

(١٩) Stephen p. Blake, *Shajhanabad: The Soverign City in Mughal India* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1991).

(٢٠) Richard M. Eaton and Georges Mitchel, *Furuzabad: Palace City of the Deccan* (Oxford: Oxford University Press, 1990).

حالة البحث في المدن الإسلامية الهندية ليست متقدمة جداً[٢١]؛ فمع وجود أقدم[٢٢] وأحدث[٢٣] أعمال تركيبية في فن العمارة، لا يوجد غير مسوحات تمهيدية غير كافية عن الدراسات المدينية، ولم تكن مكرّسة حصرياً لفترة السيطرة الإسلامية[٢٤]. كان العلماء مهتمين بالشجر أكثر من اهتمامهم بالغابة، أي، بالمعالم الجزئية لا بالمدن[٢٥]. ودراسات المدن قام بها، مهنياً، مؤرخو الفنون والمؤرخون العامون؛ بينما تأخرت الجغرافيا المدينية لتبدأ[٢٦]؛ ومؤخراً فقط وجدت الأنثروبولوجيا المدينية طريقها[٢٧]. مدنٌ قليلة جداً هي التي بُحثت بعمق من الحقبة الإسلامية؛ أما مضاعفة الدراسات لدلهي عبر التاريخ فهي استثناء[٢٨]. وعليه، ليس هناك بين أيدينا مجموعة دراسات علمية رئيسية تكفي لتأمين أرضية للتعميمات؛ وبالتالي ففي وسعي فقط تقديم مسح للوضع الحالي للبحث، ملاحظات مؤقتة عن السمات الرئيسية للمدن الهندية الإسلامية، وجدول بالموضوعات الحالية للبحث كما للأسئلة التي يجري الجواب عنها أو أهملت. وفي غياب أعمال مركبة، يبقى مسرد المراجع موزعاً ولا يمكن الإسهاب في الاقتباس منها في هذا الفصل. سأذكر فقط مراجع الأعمال المرجعية الأساسية التي بحثت في الأمثلة التي اقتبستها.

(٢١) Marc Gaborieau, «Les Rescherches sur les aires culturelles non-européennes en habitat et urbanisme: Importance pratique et théorique,» *Architetcture et comportement*, vol. 5, no. 3 (1989), pp. 193-206.

(٢٢) John Marshall, «The Monuments of Muslim India,» dans: *The Cambridge History of India*, vol. 3 (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1922), and Percy Brown, *Indian Architecture: Islamic Period*, 5th rev. ed. (Bombay: Taraporvela, 1956).

(٢٣) Ebba Koch, *Mughal Architecture: An Outline of its History and Development, 1526-1858* (Munich: Prestel, 1991), and Catherine B. Asher, *Architecture of Mughal India*, New Cambridge History of India; 1: 4 (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1991).

(٢٤) Kenneth Ballhatchet and John Harrison, eds., *The City of South Asia: Pre-modern and Modern* (London: Gurzon Press, 1980), and Indu Banga, *The City in Indian History* (Delhi: Manohar, 1992).

(٢٥) Catherine B. Asher, «Mapping Hindu-Muslem Identities through the Architecture of Shahjahanabad and Jaipur,» in: D. Gilmartin and B. Lawrence, *Beyond Turk and Hindu: Rethinkingreligious identities in Islamicate South Asia* (Gainsville, FL: University Press of Florida, 2000), pp. 121.

(٢٦) Spate, *India and Pakistan: A General and Regional Geography*, pp. 191-196.

(٢٧) Nita Kumar, *The Artisans of Banaras: Popular Culture and Identity* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1988).

(٢٨) Robert E. Frykenberg, eds., *Delhi Through the Ages: Essays in Urban History, Culture and Society* (New Delhi: Oxford University Press, 1986); Blake, *Shajhanabad: The Soverign City in Mughal India*; Narayani Gupta, *Delhi between Two Empires, 1803-1931: Society, Government and Urban Growth* (Delhi: Oxford University Press, 1981); Spear, *Delhi: Its Monuments and History*, and Dupont, Tarlo and Vidal, eds., *Delhi: Urban Space and Human Destinies*.

ثالثاً: أنواع المدن

مع استحالة العثور على دراسة لرمزية مكان مؤسسة على نحو جيد، سوف أورد فقط قائمة من أربعة تصنيفات وصفية رئيسية استخدمت من جانب الباحثين لإلقاء ضوء سريع على أنواع المدن التي مررنا بها: عواصم، مدن إدارية أدنى، مدن تجارية، ومدن حج؛ مع الأخذ في الحسبان بأنه ليس التصنيف المفضل، فلكل مدينة عدة وظائف. وقد صنفتها بحسب أهم الوظائف التي حكمت تطور المدينة المعنية.

١ ـ المدن العواصم

أكثر المدن المعروفة والمدروسة في الهند المسلمة هي التي اعتمدها السلاطين والأباطرة والنوّاب لحكم رعاياهم. كثير منها يعود إلى فترة السلطنات التي كانت حقبة عظيمة في بناء المدن. وأكثر هذه المدن شهرة هي دلهي، التي كانت رمزاً ناجحاً لسلطنة موحدة، بعد غزو تيمورلنك، لسلالتي لودي والسيّد المحليتين، قبل أن يعاد إعمارها أخيراً كعاصمة مغولية في منتصف القرن السابع عشر كما سنرى الآن. وقد بنى كل من السلالتين الحاكمتين مدينة جديدة إلى جانب سابقتها، هكذا تمثّل دلهي، فوق بقايا مدينة هندوسية غابرة، سبع مدن إسلامية متجاورة، وكلها على أنقاض مهجورة عدا العاصمة المغولية شاه جهان أباد[٢٩] (الرسم الرقم ٨ ـ ١).

تثير هذه السلسلة من المدن المهجورة السؤال ـ الذي سيبحث في الجزء التالي من الفصل ـ حول: إلى أي مدى كانت المدن الإسلامية في الهند مستوطنات دائمة وراسخة أو مجرد معسكرات مؤقتة؟ وبالمثل، فقد بنت السلطنة العظمى الأولى في دكّا، للبهمنيين، ثلاث عواصم متعاقبة[٣٠] في أماكن متعددة: غولبارغا، وفيروز أباد[٣١] وبيدار[٣٢].

---

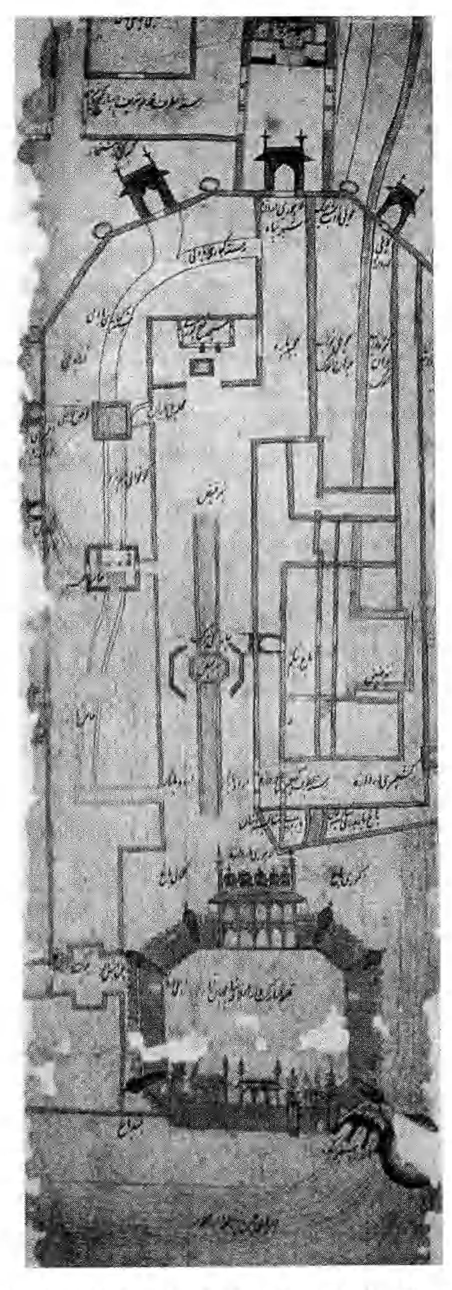
(٢٩) Y. D. Sharma, *Delhi and its Neighbourhood* (New Delhi: Archelogical Survey of India, 1964); Frykenberg, eds., *Delhi Through the Ages: Essays in Urban History, Culture and Society*, and Spear, *Delhi: Its Monuments and History*.

(٣٠) George Michell, «Firuzbad: Palace City of the Bahmanis,» in: Anna Libera Dallapiccola and Stephanie Zingel-Ave Lallemant, eds., *Islam and Indian Regions*, 2nd ed. (Stuttgart: Franz Steiner Verlag, 1993), pp. 185-191.

(٣١) Eaton and Georges Mitchel, *Furuzabad: Palace City of the Deccan*.

(٣٢) G. Yazdani, *Bidar: Its History and Monuments* (New Delhi: Oxford University Press, 1974).

الرسم الرقم (٨ ـ ١)
مدينة شاه جهان أباد



المصدر: Susan Gole, *Indian Maps and Plans from the Earliest Times to the Advent of European Surveys* (New Delhi: Manohar, 1989).

كان لكل من سلطنات الأقاليم الاثنتي عشرة التي نشأت من سلطنة دلهي ومن البهمنيين عاصمتها الموروثة أو المبنية حديثاً. الأكثر شهرة بينها هي التالية: الغَور، عاصمة البنغال في الشرق التي ترك الرحالة البرتغاليون وصفاً مفصلاً لها(٣٣)؛ وأحمد أباد في الغرب، التي أنشئت كعاصمة للسلطنة الغوجارية، وهي أيضاً مركز تجاري مهم، وبقيت مزدهرة حتى يومنا هذا عبر الإمبراطورية المغولية والحقبة الاستعمارية(٣٤)؛ وغولكوندا من الدَّكَن، التي باتت اليوم أطلالاً بعدما كانت مشهورة بمجوهراتها، ووصفها بإسهاب الرحالة الأوروبيون، في حين عُرفت بيجابور بمتصوفيها(٣٥)؛ وأغرا، التي أنشأتها الأسرة الحاكمة اللودية في دلهي في منتصف القرن الخامس عشر، وقد اشتهرت بعدما حوّلها الإمبراطور أكبر بعد قرن واحد إلى واحدة من عواصم الإمبراطورية المغولية(٣٦) (الرسم الرقم (٨ ـ ٢)).

بنى المغول كذلك، الذين عاشوا في معسكرات(٣٧)، عدة عواصم في أماكن متعددة لتتلاءم مع دوافعهم الإستراتيجية والسياسية أو الدينية. في النصف الثاني من القرن السادس عشر ترك الإمبراطور أكبر دلهي واختار أغرا التي توسعت وزخرفت كأول عاصمة له. ولأسباب أيديولوجية أي لتشريع سلالته من خلال الطريقة الشيشتية الصوفية، بنى حول ضريح الولي سليم شيشتي مدينة فاتح بور سيكري التي لم تدم طويلاً(٣٨).

وفي آخر عهده، وليستكمل حملته على كشمير وأفغانستان، انتقل أكبر إلى الشمال وبنى عاصمته الأخيرة ـ التي لا تزال محفوظة جيداً ـ وهي لاهور، على

(٣٣) Genevieve Bouchon and Filipe *Thomaz, Voyages dans le delta du Gangeet de l'rranouady, 1521* (Paris: EHESS, Fondation Gulbenkian, 1988), and Richard M. Eaton, *The Rise of Islam and the Bengal Frontier, 1204-1760* (Berkley, CA: University of California Press, 1993).

(٣٤) K. L. Gillion, *Ahmedabad: A Study in Insian Urban History* (Berkley, CA: University of California Press, 1968), and Gillion, *Ahmedabad: A Study in Insian Urban History*, and Claude Markovits, «L'Adaptation d'un espace urbain traditionnel à des fonctions nouvelles: Le Cas d'Ahmedabad (Inde),» dans: Pierre Clément, Sophie Charpentier et Charles Goldblum, *Cites d'Asie*, cashiers de la recherché architectural, nos. 35-36 (Marseille: Editions Parentheses, 1995), pp. 47-56.

(٣٥) Richard M. Eaton, *Sufis of Bijapur, 1300-1700: Social Roles in Medieval India* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1978; Reprint New Delhi: Munshiram Manoharlal, 1996).

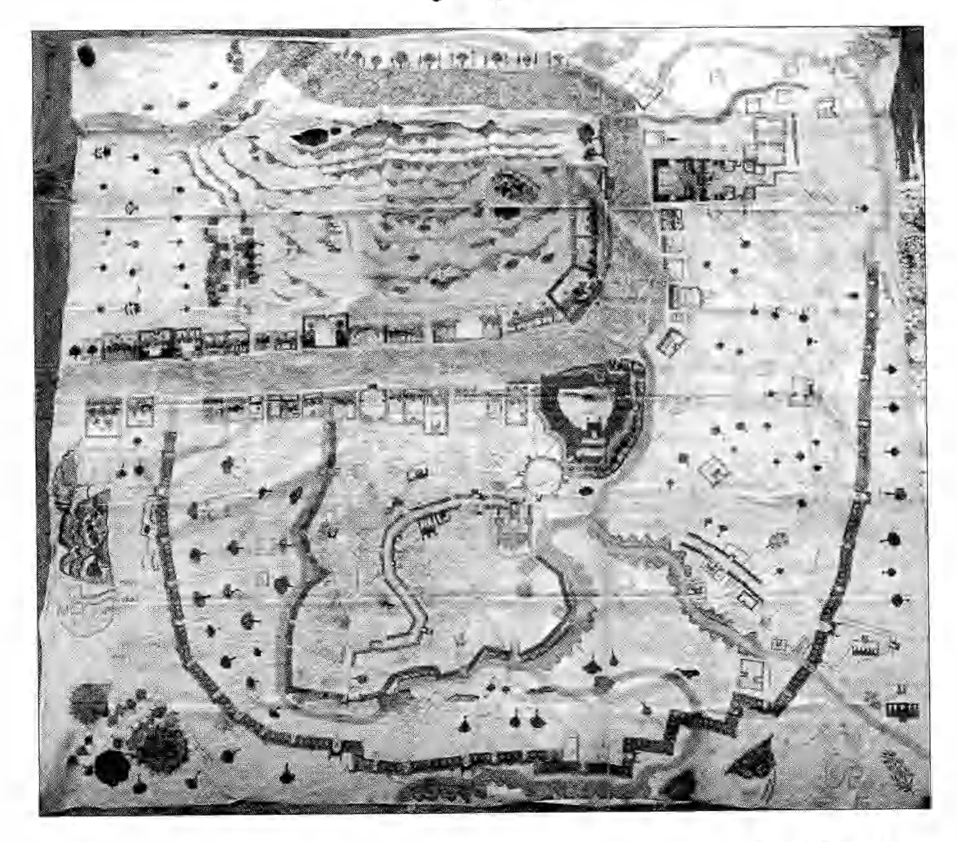
(٣٦) I. p. Gupta, *Agra: The Imperial Capital: Urban Glimpsesof Mughal India* (Delhi: Discovery, 1986).

(٣٧) Gaborieau, «Villes de Toile et villes de pierre: Les Capitals Mongoles etainent-elles des camps?».

(٣٨) Koch, *Mughal Architecture: An Outline of its History and Development, 1526-1858*, pp. 56-60, and Atilio Petruccioli, *Fathpur Sikri: La Citta del sole e delle acque* (Rome: Carucci Editore, 1988).

موقع مدينة غزنوية سابقة[٣٩]. وقد تُركت لشاه جهان أباد (١٦٢٨ ـ ١٦٥٨) التي شيّدت منذ عام ١٦٣٨ كأكبر عاصمة مغولية، والتي ألهمت بعد ذلك تخطيط نيودلهي، غير أنها عادت فأصبحت دلهي القديمة بعدما بنى البريطانيون نيودلهي الجديدة خاصتهم[٤٠].

الرسم الرقم (٨ ـ ٢)
مدينة أغرا



المصدر: المصدر نفسه.

(٣٩) M. A. Khan, *The Walled City of Lahore* (Lahore: [n. pb.], 1993).

(٤٠) Blake, *Shajhanabad: The Soverign City in Mughal India*; Eckart Ehlers and Thomas Krafft, eds., *Shajhanabad/Old Delhi: Tradition and Colonial Change* (Stutgart: Franz Steiner Verlag, 1993), and Koch, *Mughal Architecture: An Outline of its History and Development, 1526-1858*.

انظر أيضاً: الفصل الثالث والعشرون من هذا الكتاب.

كان نشوء دول إقليمية جديدة في القرن الثامن عشر فرصة أيضاً لتطوير أو خلق مدن ملكية جديدة وإدارية جديدة يمكن تسميتها عواصم «نوّابية». بقيت من المدن تلك اثنتان مشهورتان خارج الهند: مدينة حيدر أباد في الدَّكَّن، وكانت يوماً ما ضاحية لغولكوندا، التي عاد فطوّرها «النظاميون»، وهي سلالة سنية حاكمة استطاعت البقاء كإمارة خلال الحقبة البريطانية[٤١]؛ ولكناو، عاصمة لإمارة شيعية في وسط وادي الغانج، حيث سيطر التأثير الإيراني[٤٢]؛ ومرشد أباد في البنغال، التي ازدهرت يوماً ما كمقر لآخر الأسر الحاكمة الشيعية، وهي اليوم طي النسيان؛ وأركوت، المركز الرئيسي لإمارة سنيّة في تاميل نادو، على الساحل الجنوبي الغربي للهند، ولا تزال في الذاكرة. ويبقى أكثرها شهرة اليوم عواصم الولايات الأفغانية الجديدة في غرب الهند مثل فرّوخ أباد[٤٣] ورامبور وبوبال.

٢ ـ المدن الإدارية الأدنى

بين العاصمة والقرية كان يوجد في الحقبة المغولية سلسلة من المراكز الإدارية ـ كانت تثبيتاً رسمياً لتقليد قديم ـ شملت ثلاثة مستويات[٤٤]: أولها، إدارات المقاطعات (سوبا)، وكانت صورة مصغّرة عن الحكومة المركزية مع الحاكم (سوبا ـ دار) أو نائب الملك (نوّاب) كممثل للإمبراطور؛ ثانيها، في المستوى الوسطي، الإدارات الفرعية الوسطى (ساركار)، التي يمكن تسميتها المناطق، وهي جرى تنظيمها من «أكبر» على أساس محاولات سابقة؛ وثالثها، البارغانا في المستوى الأدنى، الذي عرف منذ بداية سلطنة دلهي، وهو شبه منطقة تتألف من مجموعة قرى تحت حكم المدينة الإدارية الأصغر وتسمى قصبة.

وبحسب علمي، لا يوجد دراسة متخصصة بمدن المستوى الأول. ويمكن اختيار دكّا، عاصمة بنغلادش اليوم، كمثال؛ وهي أنشئت على يد المغول كمركز لإدارة الإقليم في بداية القرن السابع عشر. في هذه المدينة الجديدة، إلى جانب سيطرة النبلاء، جذب المغول التجار والعلماء وطوروا فن عمارتهم وهو مختلف عن

(٤١) انظر الفصل الرابع والعشرون من هذا الكتاب.

(٤٢) Juan R. I. Cole, *Roots of North India Shi'ism in Iran and Iraq: Religion and State, 1722-1859* (Berkley, CA: University of California Press, 1989), and Violette Graff, ed., *Lucknow: Memories of a City* (Delhi: Oxford University Press, 1997).

(٤٣) Gommans, *The Rise of the Indo-Afghan Empire, 1710-1780*, pp. 128-131.

(٤٤) K. K. Trivedi, *Agra: Economic and Political Profile of a Mughal Suba, 1580-1707* (Pune: Ravish Publishers, 1998), chap. 1.

فن العمارة المحلي السابق للبنغال[٤٥]. أما عواصم الأقاليم، كباتنا مثلاً، فكانت مدناً أقدم عهداً.

ستجري هنا معالجة المستويين الأوسط والأدنى معاً، إذ لا وجود منفصلاً لإدارات الساركار الوسطى، والبارغانا الصغرى. ما جذب انتباه العلماء، على نحو فضولي، هو هذا المستوى الأخير، القصبة، التي ظلت في فترة المغول والبريطانيين بؤرة الحياة الإدارية والتجارية والثقافية في الريف؛ وكان المسلمون يمثلون أكثرية في هذه المدن الصغيرة، لكنهم استمروا أقلية في المناطق الريفية المحيطة[٤٦].

اهتم المؤرخون أولاً بالوضع الإداري. على سبيل المثال، كانت بتالا في البنجاب، التي أنشئت عام ١٤٦٥، تضم تقريباً ما بين ١٥٠٠٠ و١٨٠٠٠ نسمة في بداية القرن الثامن عشر؛ وكان لكل جماعة دينية منطقتها المعيّنة بوضوح مع أحياء منفصلة لكل طائفة أو مجموعة مهنية؛ وكانت هناك مراكز لمسؤولي الدخل الحكومي والقضاء (القاضي)، يعينون من قبل السلطات الإقليمية. أغنى الإنتاج الحرفي والتجارة المدينة، التي كانت أيضاً المقر المفضل للعلماء والمتصوفة المسلمين[٤٧]. وأضاءت دراسات عن مدن أخرى على الأهمية الاقتصادية لهذه المدن الصغيرة[٤٨]، وعلى أهميتها الدينية والثقافية التي تزايدت منذ النصف الثاني للقرن السابع عشر حين أصبحت المنح للقضاة والعلماء تقليداً متاورثاً[٤٩].

تواصل تاريخ القصبات في شمال الهند منذ القرن التاسع عشر وصولاً إلى نهاية القرن العشرين[٥٠]. وقد أنجز فريق هندي ـ فرنسي يترأسه جيرار فوسمان من الكوليج دو فرانس ما يمكن اعتباره الدراسة الأكثر عمقاً للمدينة الهندية المسلمة، وهي تضمنت

---

(٤٥) Abdul Karim, *Dacca: The Mughal Capital* (Dacca: Asiatic Society of Pakistan, 1964), and Eaton, *The Rise of Islam and the Bengal Frontier, 1204-1760*, pp. 149-167.

(٤٦) Richards, *The Mughal Empire: The New Cambridge History of India*, pp. 194-196.

(٤٧) J. S. Grewal, *In the By-lanes of History: Some Persian Documents from a Persian Town* (Simla: Indian Institute of Advanced Studies, 1975).

(٤٨) Christopher A. Bayly: «The Small Town and Islamic Gentry in North India: The Case of Kara,» in: *The City of South Asia: Premodern and Modern*, ed. K. Ballhatchet and J. Harrison (London: Gurzon Press, 1980) pp. 20-48., and *Rulers, Townsmen and Bazars: North India in the Age of British Expansion, 1780-1870* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1983).

(٤٩) Alam, *The Crisis of the Mughal Empire in Mughal India: Awadh and the Bunjab, 1707-1748*, pp. 110-117.

(٥٠) Gyanendrea Pandely, «Encounters and Calmities: The History of a North Indian Qasba in the 19th Century,» in: Ranjit Guba, ed., *Subaltern Studies III* (Delhi: Oxford University Press, 1984).

خرائط مفصلة على الكومبيوتر[٥١]. القصبة تلك هي تشاندري التي أنشئت في عصر سلطنة دلهي، وكانت لفترة ما العاصمة الثانوية للسلطنة الإقليمية في مالْوا. كانت خلال الحقبة المغولية مركز إدارة (ساركار)؛ لكن أهميتها ضعفت خلال الحقبة البريطانية، فتدنى عدد سكانها عام ١٩٠١ إلى ٤٠٠٠ نسمة. ثم انتعشت مرة أخرى بعد الاستقلال، فوصل عدد سكانها في نهاية القرن العشرين إلى نحو من ٢٠٠٠٠ نسمة. ارتكز ازدهارها على الحياكة اليدوية لحرير الموسلين (الساري) الذي كان يعتبر الأجود في الهند، حتى أفضل من بينارسي.

تغطي هذه الدراسة التي لم يكتمل نشرها إلى اليوم، تاريخ هذه المدينة واقتصادها وأنثروبولوجيتها الاجتماعية. ثلث سكانها من المسلمين، وهي تضم أكثرية من ثلثين جلّهم من الحرفيين، وبخاصة النساجون، وثلثاً من النخبة. نحو ١٢ في المئة من عدد السكان هم من التجار الذين ينتمون إلى الديانة الجَاينية (هي طائفة زاهدة انفصلت عن الهندوسية) وهي تحتكر تقريباً تجارة المدينة، وأهمها التمويل والإتجار بالساري الحرير. باقي السكان هندوس ينتمون إلى ٣٨ طائفة مختلفة، أهمها اثنتان: البراهمانيون (١١ في المئة)، ويعملون كهنة، وأساتذة وموظفي الياقات البيض أو تجاراً؛ و«المنبوذون»، وهم النساجون. الأهمية الخاصة التي تحملها هذه الدراسة هي الخرائط المفصلة على الكومبيوتر للفئات الاجتماعية، التي تقارن بوضوح، كما سنرى لاحقاً، بين موقع كل جماعة دينية وكل طائفة أو مجموعة طوائف داخل كل جماعة؛ وللمسلمين أيضاً طوائفهم[٥٢] في مناطق محددة واضحة.

٣ ـ مدن وموانئ تجارية

لا يوجد نمط واحد للمدينة التجارية في الهند. كثير من المدن الداخلية التي كان لها دور سياسي عرفت أيضاً بأهميتها التجارية: مُلتان في الباكستان المتصلة بالتجارة الأفغانية؛ وباتنا في شمال الهند في بداية شبكة طريق الهملايا؛ وبرهانبور التي توسطت التجارة بين شمال الهند والدِّكَن. من دون أن ننسى أن مدن الحج مثل بينارسي كان لها أهمية كبرى أيضاً[٥٣].

(٥١) K. L. Sharma, *Chanderi, 1990-1995* (Paris: De Boccard, 1999), and Gerard Fussman [et al.], *Naissance et Declin d'une qasba: Chanderi du Xème au XVIIIème siècle*, 3 vols. (Paris: De Boccard, 2003).

(٥٢) Gaborieau, «L'Islamsation de l'indeet l'Asie orientale».

(٥٣) Pierre-Daniel Coute and Jean-Michel Léger, eds., *Bénarès: Un Voyage d'architecture* (Paris: Editions Créaphis, 1989).

اختلفت أنماط المدن الساحلية بين منطقة وأخرى. فاشتهرت منذ أيام الرحالة المسلمين الأوائل موانئ المقاطعة الغربية لغوجارات؛ أولاً كامبيه (كانبايا) حيث كانت مستوطنة من التجار المسلمين تحت رعاية الحكام الهندوس، قبل أن يجري إخضاع المدينة وإدارتها على يد المسلمين في نهاية القرن الثالث عشر؛ وبسبب الطمي (الذي يحدثه فيضان النهر)، أبدلت تدريجاً بسورات التي أصبحت في القرنين السادس عشر والسابع عشر المرفأ الإسلامي الأهم على الساحل الشرقي، حيث يسافر الحجاج إلى مكة. وتقدّم موانئ الجنوب الشرقي لكيرَلا، حيث المسلمون كانوا دائماً خاضعين للحكام الهندوس، نمطاً آخر، إذ كانت تسكن جماعة التجار المسلمين في جزء منفصل من المدينة، وكانت تمتلك نوعاً من الاحتكار للتجارة البحرية، كما الحال على سبيل المثال في كالكوتا[٥٤] وكنّانور.

طور المسلمون مدنهم التجارية في تاميل نادو على طول ساحل كورمانديل في الجنوب الشرقي للهند[٥٥]، وأشهر مدنهم كانت كايالباتينام. كانت هذه المدن في معظمها إسلامية حصراً، وكانت الأموال تغدق عليها من قبل تجار ماريكار الأثرياء؛ كان لكل حيّ جامع خاص به وشبكة من الطرقات الضيقة التي تدير فيها النساء بيوتهن. في شرق البنغال، وبسبب صعوبة إيجاد مياه عميقة في دلتا الغانج ـ براهمابوترا المتحركة دوماً، استُحدث مرفأ جديد في عرض خليج البنغال على ساحل المقاطعة البورمية في أراكان، وذلك حين أخذ المغول عام ١٦٦٦ شيتاغونغ من الملوك الأراكانيين[٥٦]، وحولوها إلى أهم مرفأ تجاري استراتيجي في المنطقة، وبقيت كذلك خلال الحكم البريطاني ثم بعد استقلال بنغلادش.

٤ ـ المدن الدينية والعلمية

تمثل المدن الدينية الوجه الأخير المتبقي لتقسيم المدن؛ إذ لا يوجد مدينة إسلامية كبرى معروفة كمدينة حج. هناك مع ذلك، بعض المدن لها حجم متواضع وتتميز بأضرحة الأولياء المشاهير التي تجذب جمهور الحجاج إليها. إثنتان منها مشهورتان بوجه خاص. الأقدم بينهما عُرفت منذ نهاية القرن الثالث عشر، باحريش، حيث دفن غازي ميان، الذي

(٥٤) Geneviève Bouchon, «Un Microsome: Calicut au 16ème Siècle,» dans: Denis Lombard and Jean Aubin, eds., *Marchands et hommes d'affaires asiatiques dans L'Ocean Indien et la Mer de Chine, 13-20 siècles* (Paris: EHESS, 1988), pp. 49-57.

(٥٥) Susan Bayly, *Saints, Goddesses and Kings: Muslims and Christians in South Indian Society, 1700-1900* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1989), pp. 77-86.

(٥٦) Eaton, *The Rise of Islam and the Bengal Frontier, 1204-1760*, pp. 234-238.

توفي في أثناء الجهاد، بحسب الرواية، ضد الهندوس في حرب مقدسة؛ هو مبجل من قبل مئات الآلاف من الحجاج، وتجري زيارة ضريحه لاستسقاء هطول الأمطار من أجل الزراعة، أو لشفاء الأمراض مثل العقم والجذام[٥٧]. خلال حكم الإمبراطور المغولي أكبر في النصف الثاني من القرن السادس عشر، أنشئ ضريح معين الدين شيشتي مُدخل الطريقة الشيشتية الصوفية إلى الهند في أجمير، ويؤم ضريحه الحجاج المسلمون من كل أرجاء الهند. يجب أن لا نغفل هنا أن عاصمة المغول المؤقتة فاتح بور سيكري بنيت على يد الإمبراطور أكبر حول ضريح سليم شيشتي الذي شفع للإمبراطور بولدٍ خلّد سلالته. وهناك أماكن أخرى اشتهرت لأهميتها الاقتصادية والسياسية هي أيضاً مدن حج مهمة، كحالة دلهي الهندية التي تستضيف مركز أكبر ولي شيشتي، نظام الدين أولياء (ت ١٣٢٥)، وغولبارغا، في الدَّكَّن، مع المقام المشهور غيسو دراز شيشتي (ت ١٤٢٢) في مُلتان، الباكستان، مقر الطريقة السهروردية، والغَور وباندوا، في البنغال[٥٨]. والمدن الهندوسية المقدسة مهمة كذلك للمسلمين على السواء؛ مثل بينارسي، حيث يوجد حي كامل من المسلمين (نساجو الساري الحرير خصوصاً). كانت هذه المدينة موضوع الدراسة الفردية الوحيدة للأنثربولوجيا المدينية التي كرّست للسكان للمسلمين[٥٩].

نوع آخر من المدن الدينية هي تلك التي بنيت لطوائف دينية معينة لعزل أعضائهم عن باقي أفراد الجماعة الإسلامية، فـ «المدن الطوباوية» بنتها الطائفة الألفية المهدوية بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر وكانت من الأمثلة الأولى المعروفة؛ لكنها دمّرت بسبب الاضطهاد[٦٠]. وكان لطائفة الأحمدية مغامرات حديثة مماثلة في القرن العشرين: كانت أولى مدنهم قاضيان، الموجودة في الهند، أول مركز رئيسي للطائفة الذي ما لبث أن هُجر منذ التقسيم[٦١]؛ وبني مركز رئيسي جديد في الربوة في الباكستان قرب لاهور. وعلى نحو مماثل أسس الحزب الديني ـ السياسي للمودودي، مدينته الخاصة بجماعته الخاصة في باثانكوت (اليوم في الهند) أولاً ثم نقلها بعد التقسيم إلى مقربة من لاهور.

---

(٥٧) Marc Gaborieau, «Les Saints, les caux et les récoltes en Inde,» dans: Muhammad Ali Amir-Moezzi, ed., *Lieux d'Islam: Cultes et cultures de l'Afrique à Jawa* (Paris: Editions Autrement, 1996), pp. 239-254.

(٥٨) Eaton, Ibid., pp. 176-177.

(٥٩) Kumar, *The Artisans of Banaras: Popular Culture and Identity*, and Coute and Légere, eds., *Benares: Un Voyage d'architecture*.

(٦٠) Derryl Maclean, «La Sociology de l'engagement Politique: Le Mahdawīya indien et l'état,» dans: Mercedes Garcia-Arenal, ed., *Mahdajisme et millénarisme en Islam*, Revue des Monde Muslumun et de la Mediterranee, nos. 91-94 (Edisud: Aix-en-Province, 2000), pp. 241.

(٦١) Spate, *India and Pakistan: A General and Regional Geography*, pp. 189-192.

بدءاً من النصف الثاني للقرن التاسع عشر، حدث تطور آخر في أثناء الحقبة الاستعمارية وهو نمو المدن العلمية التي انتشرت حول الجامعات الإسلامية: وأكثرها روعة ديوبند للسلفيين، وأليغار للحداثويين؛ وفي الأخيرة كان ازدهار الجامعة السبب المباشر لزيادة عدد السكان المسلمين الذي يبلغ اليوم نصف عدد السكان وهو ٤٠٠٠٠٠ نسمة، وهي نسبة غير اعتيادية في الهند. وبالمثل، أدى تأسيس الجامعة الإسلامية الوطنية في ضاحية دلهي، أوكلا، إلى نمو مدينة غدت إجمالاً إسلامية.

رابعاً: موضوعات للبحث

بعد هذا العرض، سأحلل الموضوعات الأساسية التي ظهرت في المنشورات المعنية بالمدن الإسلامية في الهند، مشيراً إلى الأسئلة المعلقة وتدارك الهفوات لافتتاح آفاق جديدة للبحث.

١ ـ مدن أم معسكرات؟

دعنا أولاً نناقش الفكرة الملتبسة التي تنسب صفة الزوال السريع للمدن الإسلامية في الهند. فاستناداً إلى الملاحظات التي تركها الرحالة الأجانب، التي قارنت العواصم المغولية بالمخيمات العسكرية، ظهرت تعميمات غير عادلة حيال الطابع المؤقت للمدن التي بناها المسلمون. صحيح أن عواصم المغول تحمل في تصميمها شيئاً من المخيمات العسكرية[٦٢]؛ كذلك لا يمكن إنكار أنه حين كان الإمبراطور يغادر، كان جزء من النبلاء والتابعين له يهجرون بدورهم، الأمر الذي كان يسفر عن تدنٍ كبير في عدد السكان. لكن التغيّر في عدد السكان لا يعني بالضرورة الهجرة من المدينة. وعملياً، قليلة هي المدن التي هجرت بشكل كامل: في الدُكَّن، فقط فيروز أباد وبيدار أخليتا كلياً من السكان، لكن ذلك كان نتيجة تمزق السلطنة البهمنية وصعود عواصم للدول الصغيرة الجديدة، مثل غولكوندا وبيجابور، اللتين انبثقتا عنها. غولكوندا ـ وهي حصن رائع على تلة ولكن تنقصه المياه ـ أخليت بالتأكيد لمصلحة حيدر أباد فقط بعد انتصار المغول عام ١٧٨٧ حين فقدت ميزتها الاستراتيجية؛ أما في الشمال، ففي منطقة البنغال فقط، هُجرت الغَور وباندوا لمصلحة دكّا المغولية ومرشد أباد ما بعد المغولية. ومن بين العواصم المغولية الأربع، وحدها فاتح بور سيكري التي هُجرت لأن المدينة لم تكن

(٦٢) Gaborieau, «Villes de Toile et villes de pierre: Les Capitals Mongoles etainent-elles des camps?».

نموذجية من عدة جوانب: كانت طريقها بعيدة، من دون مياه كافية، بينما كانت عواصم المغول الأخرى على ضفاف الأنهار. وكانت حماقة من الإمبراطور أكبر بناء مدينة للحج في وقت أزمة الصوفية، ومن دون أن تستطيع تحقيق أية وظيفة إدارية أو تجارية حقيقية، وغدت كالصدَفة الفارغة بعدما هجرها الإمبراطور. على العكس من ذلك، شيّدت أغرا ودلهي ولاهور على مواقع لمدن سابقة في السلطنة، واستمرت مزدهرة إلى يومنا هذا. تحوي دلهي سبع مدن متجاورة، ست منها مهجورة الآن. لكن الموقع لم يُهجر أبداً، فكل سلالة كانت تبني مدينة جديدة إلى جانب السابقة، وحتى عندما توقفت عن كونها العاصمة، وتجاوزتها أغرا ولاهور في معظم القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر، فهي لم تتوقف عن أن تكون مراكز مهمة للحياة الاقتصادية والدينية والثقافية. وأخيراً فإن معظم المدن الإسلامية في الهند كانت دائمة: وهي حال المدن الموروثة مثل مُلتان ولاهور وباتنا، أو حال المدن التي أنشئت حديثاً مثل أحمد أباد وأجمير ودكّا.

٢ ـ معدل المدينية

السؤال الأساسي المطروح من مؤرخي جامعة أليغار ـ ذاهباً نحو الماضي حول إحصاءات المستعمرين ـ هو معدل المدينية: تقدّر مدرسة المؤرخين في جامعة أليغار الإسلامية، وبالاعتماد على تقارير الرحالة الغربيين والوثائق المالية، نسبة السكان المدينيين (الهندوس والمسلمون على السواء) في حدود ١٥ في المئة[٦٣]. هذه التخمينات هي الوحيدة المعقولة المتوافرة، وهي ربما تكون مبالغاً فيها كذلك لأسباب أيديولوجية[٦٤]. فجامعة أليغار تذهب على نحو بديهي إلى أن الفتح الإسلامي سرّع من معدل المدينية، فقد غدا للمدن دور اقتصادي يقارن (أو حتى أكبر) بالمدن الأوروبية المعاصرة، وأن الحقبة البريطانية كانت بامتياز زمن نزع المدينية. وفي الحقيقة لا يوجد أساس ثابت لتلك التأرجحات بين ارتفاع وهبوط. وإذا أخذنا في الحسبان الإحصاءات التي سجلت نمواً في عدد السكان المدينيين من ٩,٣ في المئة عام ١٨٨١ إلى ١٦,١ في المئة عام ١٩٥١، يغدو أكثر عقلانية التقدير أن عدد السكان في المدن خلال الفترة المغولية لم يتجاوز ١٠ في المئة.

---

(٦٣) Moosvi, *The Economy of the Mughal Empire c. 1595: A Statistical Study*, p. 305, and Habib, *The Agrarian System of Northern India, 1526- 1707*, pp. 83-85.

(٦٤) M. Moufakharul Islam, «Urbanisation and Urban Centers in Mughal India: Some General Comments,» in: Sharif Uddine Ahmad, ed., *Dhaka: Past, Present, Future* (Dhaka: Asiatic Society of Banglaesh, 1991), pp. 584-594.

٣ ـ الإدارة

موضوع شائع آخر للتاريخ السياسي والإداري، هو تاريخ الحكومة المدينية. وقد شدد المؤرخون الهنود على حقيقة أن الهند المسلمة تقارن بشكل سيئ بأوروبا من حيث منح المدن حرياتها باكراً. على العكس، لم تتمتع المدن الهندية باستقلال سياسي؛ فقد كانت مباشرة تحت حكم سلطة الملك، الذي يتمثل محلياً عبر نوع من ضابط الشرطة ويسمى بالهندية كوتوال، وهو له قوة الشرطي وصلاحياته، ويفرض القانون والنظام والأخلاقيات العامة، ويضبط البغاء وبيع المسكرات، وينفذ أوامر الملك ويتجسس لمصلحته، ويطبق أوامر القاضي، ويشرف على السجون، وينفذ حكم الإعدام والتشهير بالملحدين(٦٥). كان يجمع بطريقة ما مهمات الشرطي إلى المحتسب التقليدي. وفي عام ١٦٥٩ فقط أحيا أورانغزب المكتب الرسمي، ولكن طبقاً لتقارير الرحالة فقد استمرت القوة الحقيقية في المدن بيد الكوتوال.

كانت المدينة مقسمة تقليدياً إلى أحياء منعزلة، أو محلّات، تسكن كلَّ محلةٍ منها جماعة دينية، إثنية أو طائفية معينة. وللوصول إلى أفراد من هذه المجموعات، كان على الكوتوال أن يذهب من خلال رأس هذه العائلة في كل حيّ(٦٦). ولا يُعرف كيف كان يتم هذا التوسط.

٤ ـ التصميم والتخطيط

عدا قلة من المدن المخططة كلياً، مثل فيروز أباد في الدَّكّن وفاتح بور سيكري وشاه جهان أباد في الشمال، نمت المدن في العادة ببطء، كحالة أغرا ولاهور. لذلك من الصعب إيجاد نموذج متماسك. تضاف هذه الصعوبة إلى صور ذهنية لا تنطبق على الواقع؛ فتمثيل لاهور على خريطة طرق كمدينة متناسقة مع حصن في الوسط يمكن أن يتطابق مع نموذج مثالي لمخيم عسكري، لكنه بعيد جداً من واقع مدينة مغولية يقع الحصن فيها عند الزاوية الشمالية للسور والمجرى السابق للنهر(٦٧). والموقع الجانبي

---

(٦٥) Jadunath Sarkar, *Mughal Administration* (Calcutta: M. C. Sarkar, 1920), pp. 93-97; Qurechi, *The Administration of the Mughal Empire*, pp. 203-206; M. p. Singh, *Town, Market, Mint and Port in the Mughal Empire* (Delhi: Adam Publishers, 1985); C. E. Bosworth, «Kotwal,» in: *Encyclopedia of Islam*, 2nd ed. (Leiden: E. J. Brill, 1986), vol. 5, pp. 279-280; Gaborieau, «L'Islamsation de l'indeet l'Asie orientale,» pp. 31-32, and Trivedi, *Agra: Economic and Political Profile of a Mughal Suba, 1580-1707*, pp. 187-188.

(٦٦) Qurechi, *The Administration of the Mughal Empire*, pp. 205-206.

(٦٧) Naqvi, *Urban Centres and Industries in Upper India, 1556-1803*, and Gaborieau, «L'Islamsation de l'indeet l'Asie orientale,» pp. 26 and 29.

هذا للحصن موجود ليس فقط في شاه جهان أباد وأغرا، بل وفي مدن السلطنة مثل أحمد أباد[٦٨]. بالنسبة إلى الدَّكَن، تحولت فيروز أباد عن انحراف كهذا باتجاه النهر[٦٩].

ويبقى أنه من المبكر التعميم في موضوع تخطيط المدن الإسلامية في الهند. مع ذلك، حاول أتيليو بيتروشيولي، في مقال جريء له بعنوان «إعلان كوادراتوم...» وضع بعض المعالم المشتركة لمدن الدَّكَن الإسلامية، وبخاصة التقاطعات العمودية للشوارع الرئيسية، مشيراً إلى تقسيم مثالي للمدينة إلى أحياء، وعلى شاكلة الصور المستوحاة من الجنة[٧٠]. ويساعد كثيراً بحث سوزان غول حول الخرائط والمخططات الهندية على فهم تصميم المدن[٧١].

٥ ـ النسيج المديني والهرمية الاجتماعية والعزل المكاني

يرتبط تخطيط المدن بالسؤال المتعلق بتوزع المجموعات الاجتماعية فيها. فبسبب زوال أكثرية المباني، ولعدم دقة الوصف في المصادر المحلية، بات من الصعب إعادة تركيب النسيج المديني من جديد، وبخاصة في ما يعني الطبقات الدنيا؛ فمن المستحيل مثلاً معرفة كيف عاش الحرفيون وعملوا ـ حتى في الأزمنة غير البعيدة جداً من الحقبة المغولية. ولا تستطيع الأنثروبولوجيا التاريخية أكثر من الاستقراء عبر التجربة ومن المراقبة الراهنة ووثائق الوصف الاستعماري.

يجب ملاحظة ثلاث سمات: أولاً، النسيج المديني الأساسي كان أقل من بيوت متراصة متجانسة وأكثر من قصور فخمة للنبلاء الأثرياء (الرسم الرقم (٨ ـ ٣))، التي هي نسخة مصغرة عن قصر الإمبراطور، ولكل منها جيش من التابعين والخدم والحرفيين[٧٢]؛ بينما عاش الناس العاديون وبمقدار ما استطاعوا في بيوت من طين بين قصور النبلاء[٧٣]، وفي شهادة الرحالة الفرنسي فرنسوا برنيه في القرن السابع عشر،

---

(٦٨) Markovits, «L'Adaptation d'un espace urbain traditionnel a des fonctions nouvelles: Le Cas d'Ahmedabad (Inde)».

(٦٩) Michell, «Firuzbad: Palace City of the Bahmanis».

(٧٠) Attilio Petruccioli, ««Ad Quadratum»: Notes on Deccani Town Planning,» in: Anna Libera Dallapiccola and Stephanie Zingel-Avé Lallement, eds., *Islam and Indian Regions*, 2 vols. (Stutgart: Franz Steiner Verlag, 1993), pp. 193-202.

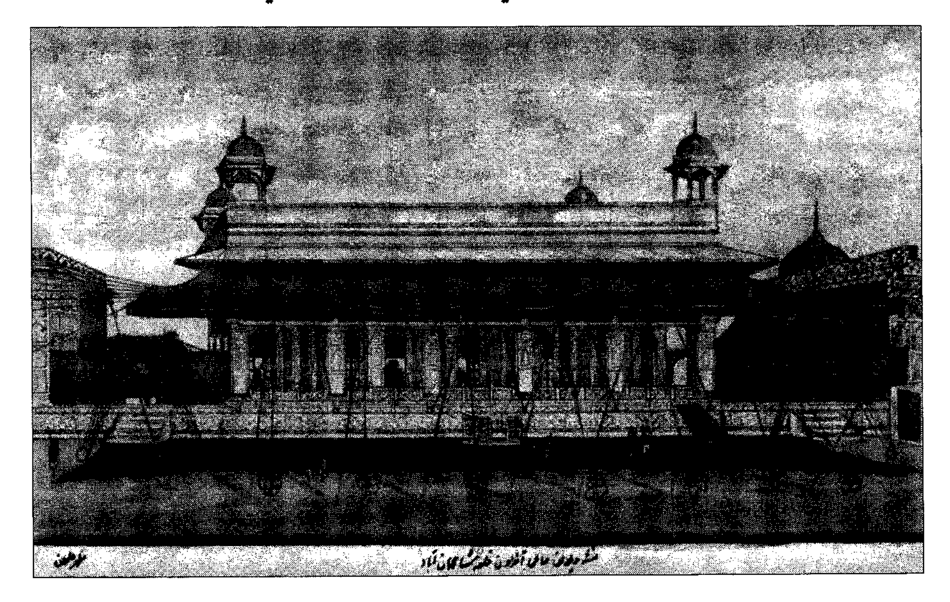
(٧١) Cole, *Roots of North India Shi'ism in Iran and Iraq: Releigion and State, 1722-1859.*

(٧٢) Blake, *Shajhanabad: The Soverign City in Mughal India.*

(٧٣) Gaborieau, «Villes de Toile et villes de pierre: Les capitals Mongoles etainent-elles des camps?,» pp. 25-26.

كانت شاه جهان أباد أشبه بـ «مجموعة قرى متصلة معاً (...) كمخيم حربي، أحسن ترتيباً وأكثر راحة منه في الريف»(٧٤). إلى ذلك، كان هناك بازارات، ويحتمل بقوة أنها ضمّت مناطق للحرفيين المتسخة ثيابهم، إذ وُضع في العهد المغولي قانون أساسي إلزامي فرض على الكوتوال أن يوزع «في أحياء منفصلة في المدن التجارات المحتقرة التي لها روائح كريهة، على سبيل المثال اللحامون وغاسلو الموتى والكنّاسون»(٧٥).

الرسم الرقم (٨ ـ ٣)
الديوان الخاص في الحصن الأحمر، دلهي



ثانياً، كان هناك تراتبية واضحة مع مدينة أرقى إلى جانب القصر الملكي حيث بيوت النبلاء، والطبقة العليا، ومدينة أدنى حيث تتجمع الطبقات الدنيا منفية في الجزء المقابل من المدينة. وقد ذُكر ذلك في المصادر؛ وجرت محاولة للتوسع في هذا السؤال عبر خريطة لشاه جهان أباد من النصف الأول من القرن التاسع عشر(٧٦).

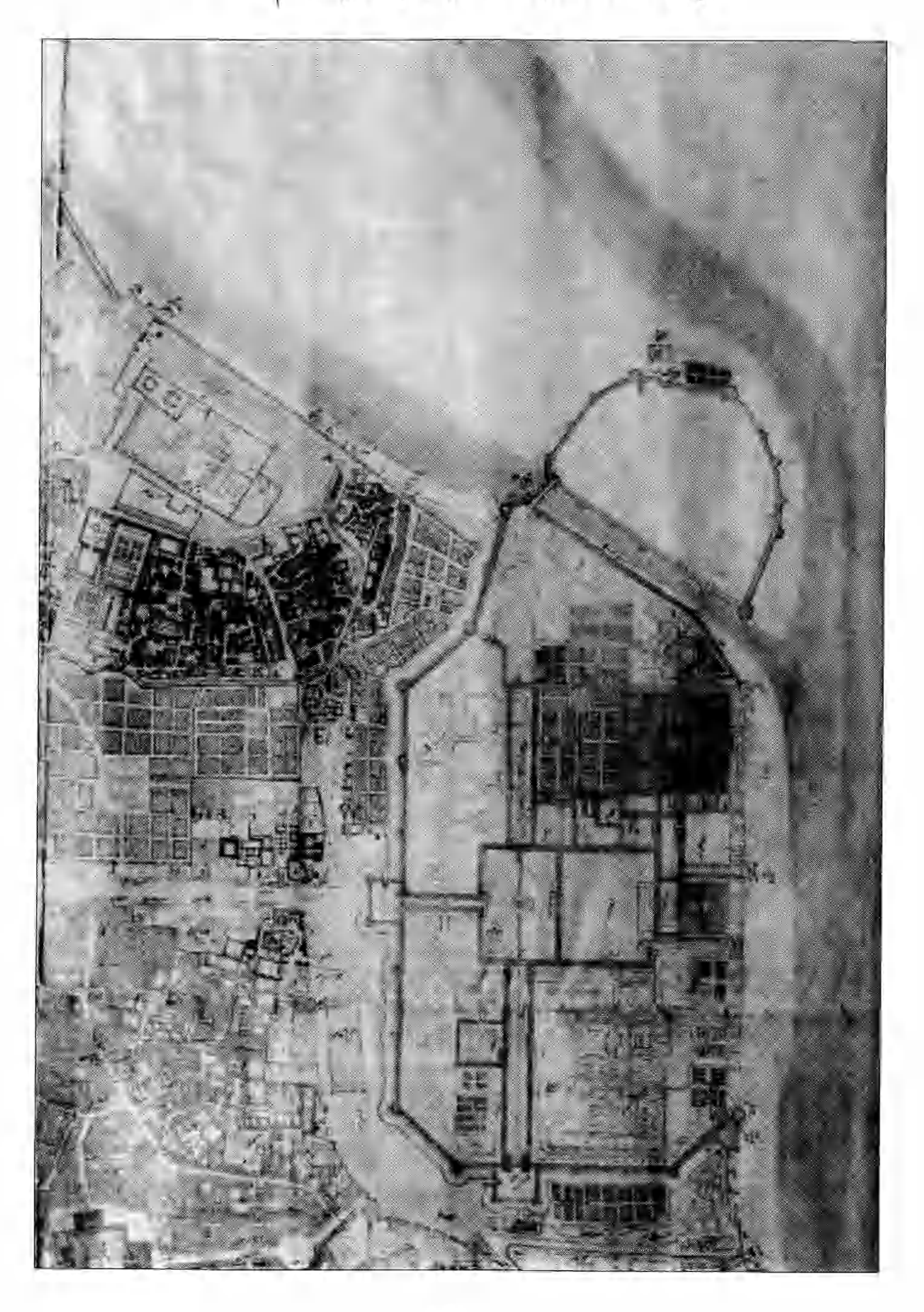
(٧٤) Francois Bernier, *Voyage dans les états du grand Mogol*, edited and introduced by France Bhattacharya (Paris: Fayard, 1981), pp. 184-185.

(٧٥) Bosworth, «Kotwal,» in: *Encyclopedia of Islam*, p. 280, and Qurechi, *The Administration of the Mughal Empire*, p. 206.

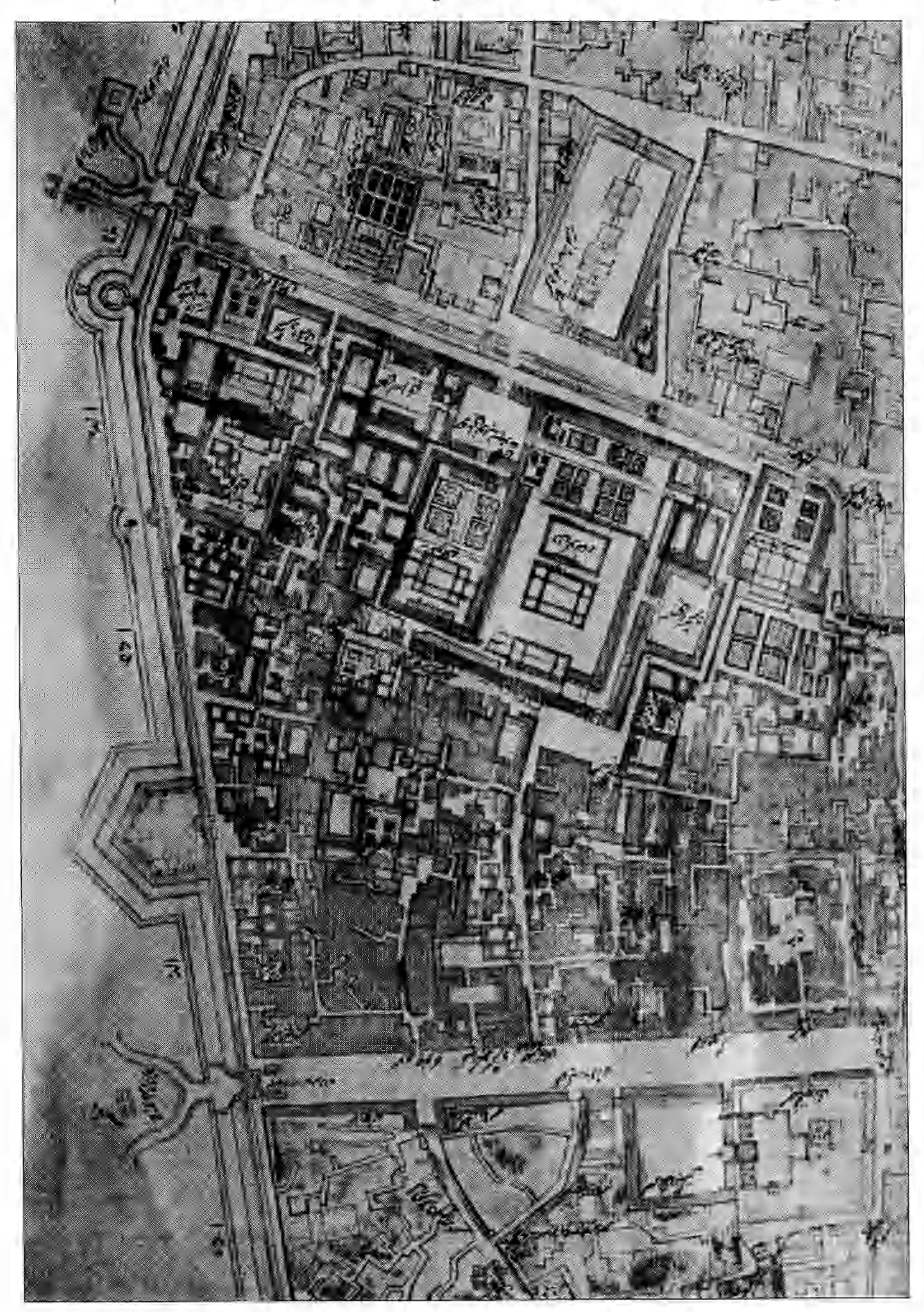
(٧٦) Jamal Malik, «Islamic Institutions and Infrastructures in Shajhanabad,» in: Eckart Ehlers and Thomas Kraft, eds., *Shajhanabad/Old Delhi: Tradition and Colonial Change* (Stutgart: Franz Steiner Verlag, 1993), pp. 43-64.

الرسم الرقم (٨ ـ ٤)

خريطة مفصّلة لمدينة شاه جهان أباد تعود للعام ١٨٣٠



الرسم الرقم (٨ ـ ٥)
الحي الواقع بين بوابة كابول وبوابة لاهور في خريطة شاه جهان أباد من العام ١٨٣٠



أخيراً، السكان الذين كانوا معزولين تبعاً لمجتمعهم الديني، أو أصولهم الإثنية أو طوائفهم. وقد تكرر ذكر هذا العزل في المصادر، لكن مع نقص في المعلومات التي تكفي لإعادة تركيب الخريطة الاجتماعية مجدداً. إلا أن لمحة عن المدن التقليدية مثل تشاندري تمكننا، مع ذلك، من تخيّل الماضي(٧٧): الجماعات الثلاث المتدينة (المسلمون الهندوس والجاينيون) عاشت في مناطق منفصلة؛ بالنسبة إلى الهندوس والمسلمين، المختلفين اجتماعياً، عاشت الطِبقات الاجتماعية العليا في مناطق متمايزة عن مناطق الطبقات الدنيا. وأعيد تجميع النسّاجين في مناطق محددة، مع أحياء منفصلة فيها ثانيةً للهندوس والمسلمين. ويمكن تكرار الملاحظات نفسها عن بينارسي، وخصوصاً الأحياء المقتطعة للنساجين المسلمين أو الهندوس(٧٨).

٦ ـ حدود المدينة: الداخل والخارج

لا يمكن تعريف مدينة ما بنفسها فقط، وإنما يجب أن تؤخذ في علاقتها بالخارج. لقد تعود مؤرخو مدرسة أليغار إيلاء أهمية واضحة للعلاقات الاقتصادية ـ الاجتماعية بالريف (وهي بالطبع كذلك)، لكنهم تجاوزوا الأسئلة الأكثر أهمية حول المساهمة المباشرة للضواحي والأسواق والمزارات في صنع تعريف المدينة من وجهات نظر ثقافية واستراتيجية وشعائرية.

مادياً، كانت حدود المدينة تتحدد بواسطة الأسوار الدفاعية التي تُدعّم عادة بخنادق، كما في حالة بيجابور. والأسوار الأكثر أهمية المتبقية هي في بيدار حيث حُفظت مع كامل بواباتها كما كانت في منتصف القرن السادس عشر، أي في آخر تعزيز لها لمقاومة نيران المدافع(٧٩). من المعروف أن جزءاً من الحياة الاقتصادية ـ الاجتماعية للمدينة كان قد تمدد خارج الأسوار مع كثافة سكانية في الضواحي التي حوت مستودعات وأسواق(٨٠). كذلك توسعت الحياة الدينية والثقافية خارج الأسوار وحيث وُجدت أضرحة الأولياء والملوك التي كانت زيارتها جزءاً من الحياة الثقافية ـ الاجتماعية. وفي مثال شاه جهان أباد من جديد، فقد أكد أدب القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على أهمية هذه الزيارات

(٧٧) Sharma, *Chanderi, 1990-1995*, map p. 123.

(٧٨) Kumar, *The Artisans of Banaras: Popular Culture and Identity*, pp. 63-82, and Coute and L'gere, eds., *Benares: Un Voyage d'architecture*, pp. 11-38.

(٧٩) Yazdani, *Bidar: Its History and Monuments*.

(٨٠) Hamida Khatoon Naqvi, «Shahjahanabad: The Mughal Delhi: An Introduction,» in: R. E. Frykenberg, ed., *Delhi Through the Ages: Essays in Urban History, Culture and Society* (New Delhi: Oxford University Press, 1986), p. 148.

التي يقوم بها الرجال كما النساء، وبخاصة مساء الخميس ونهار الجمعة وعلى احتفالات الأولياء. ومع وجود مواقع كثيرة للزيارة، إلا أن موقعين خارج نيودلهي تحديداً نالا أكبر قدر من التجميل على يد آخر المغول: الأول، قطب الدين بختيار كاكي (ت ١٢٣٥هـ)، الولي الراعي لدلهي، في مهراولي، قرب المدينة الإسلامية الأقدم، وقطب مينار في الجنوب الغربي؛ والثاني، في الجنوب الشرقي، المنطقة المحيطة بضريح نظام الدين أولياء (ت. ١٣٢٥) الذي يبقى إلى اليوم المركز الأكثر حيوية للحياة الدينية والثقافية في دلهي المسلمة، كما يحوي أضرحة مغولية مهمة. إن مجمع المدافن الأكثر أهمية الذي يضم أيضاً أقدم النصب التذكارية المغولية في دلهي، هو المجمع المبني فوق رفات الإمبراطور همايون (ت.١٥٥٦)، الواقع في وسط حديقة مغولية، ربما كانت تستعمل أيضاً مقر سكن ريفياً للعائلة الإمبراطورية[٨١]. هذه الزيارات خارج الأسوار كانت من صلب تقاليد المسلمين في المدن الهندية؛ بل إن أحد الأنثروبولوجيين يجعل من بينارسي حالة نموذجية لخروج الهندوس والمسلمين معاً، كل صباح أو في أيام الأعياد، للزيارة أو الاحتفال كجزء من حياتهم المشتركة[٨٢].

إلا أن هناك جانباً قضائياً ودينياً لا يذكر إلا نادراً[٨٣]؛ فالأسوار ليست خطاً دفاعياً مادياً فقط، بل إن لها أيضاً أهمية دينية إسلامية يعرفها جميع المصلين. كانت صلاة الجمعة تقام في الجامع الكبير داخل الأسوار، وعادةً في أعلى نقطة من المدينة قرب قصر الحاكم؛ أما الصلاة بمناسبات استثنائية، كصلاة عيدي الفطر والأضحى وصلاة الاستسقاء أيام الجفاف فيجب إقامتها خارج الأسوار، في مكان يسمى بالعربية المصلى ويعرف بالهند باسمه الفارسي عيدكاه. مثل هذه الصلاة الخارجية هي سمة عادية للمدن الهندية الإسلامية منذ سلطنة دلهي حتى أيامنا الحاضرة؛ إذ يجب أن تقام في أرض كبيرة متسعة لاستيعاب آلاف الرجال، متّجهين نحو القبلة التي يرمز لها بإشارة على الحائط غرب المحراب، كما يمكن أن تكون بشكل بناء أكثر تفصيلاً[٨٤]. تحوي شاه جهان أباد مثل هذا العيدكاه[٨٥] حيث كان الإمبراطور يحضر لإقامة صلاة الأعياد راكباً على فيل، يرافقه كبار النبلاء. وحتى إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر حين كان المندوب السامي البريطاني يحضر الصلاة

(٨١) Asher, *Architecture of Mughal India*, 43-47.

(٨٢) Kumar, *The Artisans of Banaras: Popular Culture and Identity*, pp. 83-110.

(٨٣) Gaborieau, «L'Islamsation de l'indeet l'Asie orientale,» pp. 30-31.

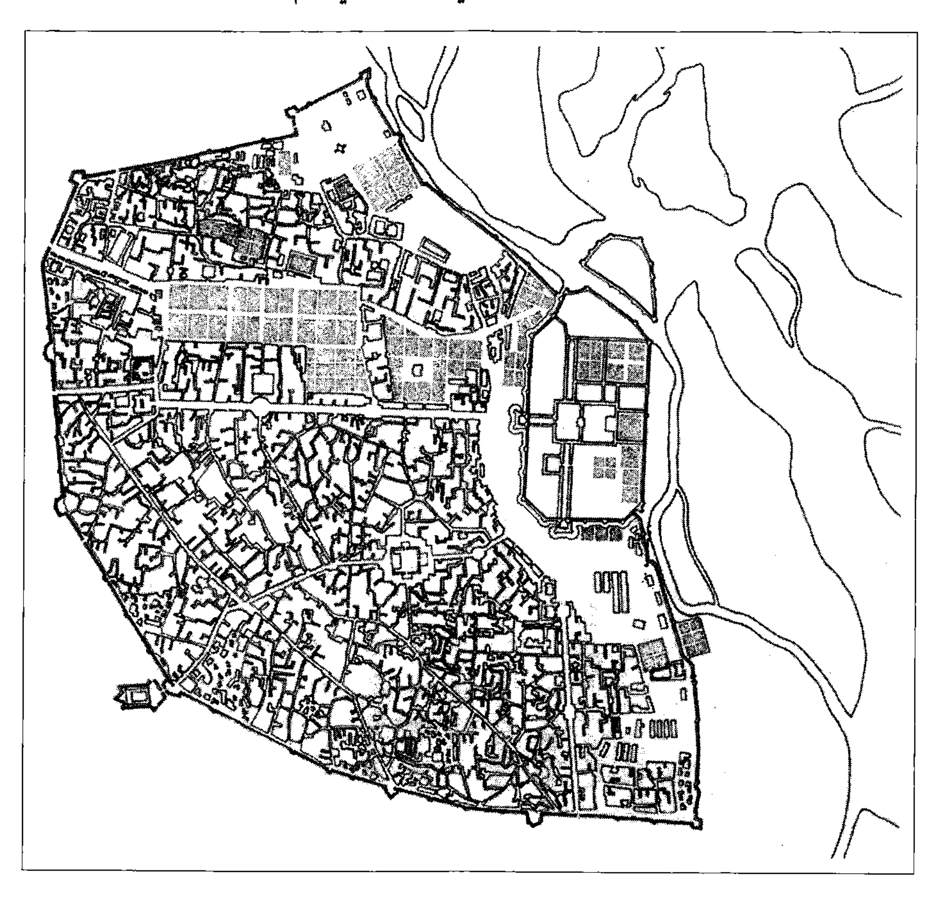
(٨٤) Asher, *Architecture of Mughal India*, Index/under «Idgah».

(٨٥) المصدر نفسه، ص ٢٠٢ و٢٣٥.

والاحتفال(٨٦). كان لهذه الاحتفالات بالطبع أهمية سياسية حيث يجري تجديد الولاء للإمبراطور.

الرسم الرقم (٨ ـ ٦)

خريطة إعادة تركيب لدلهي القديمة في عام ١٨٥٧

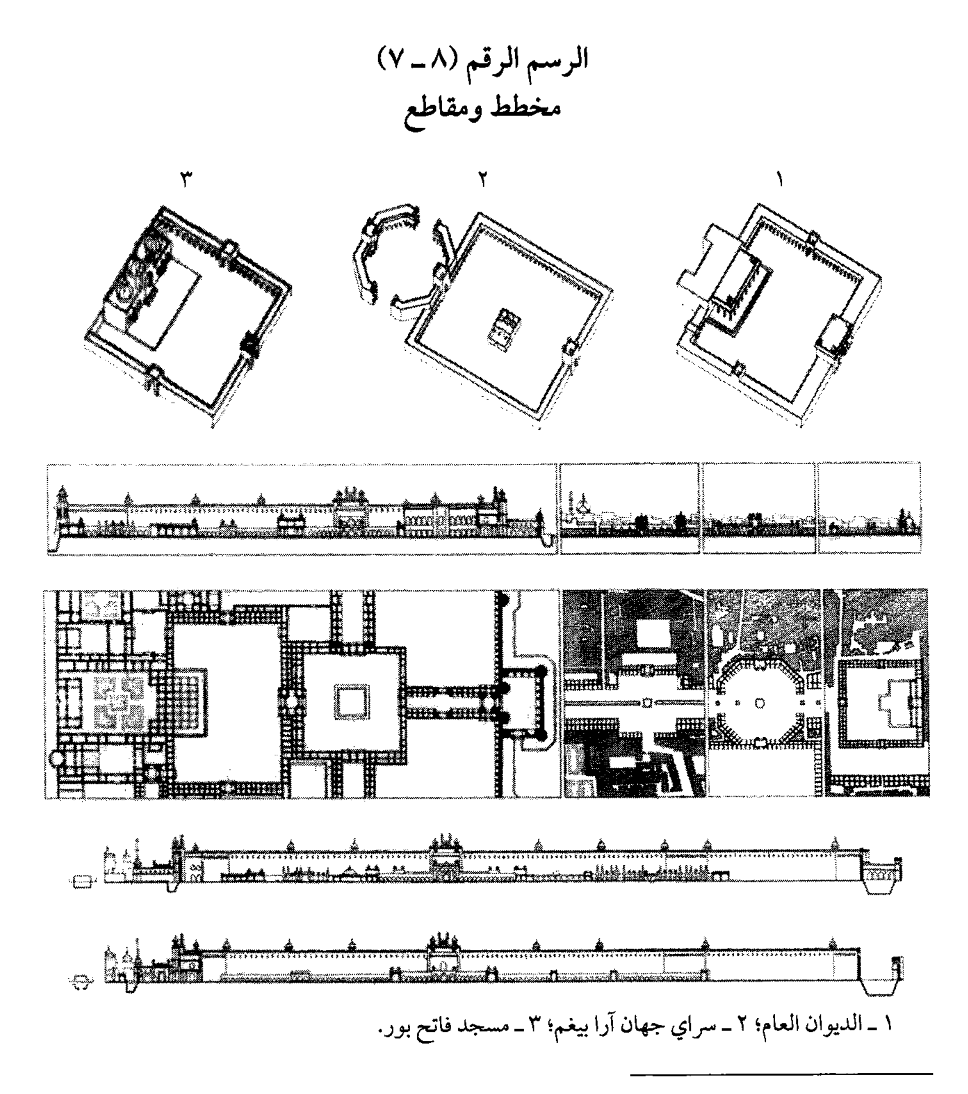


أخيراً، يمكن السؤال عمّا إذا كانت هذه الحدود الشرعية، التي تحدد الفارق بين نوعي الصلاة، ليست حدوداً دينية تفصل بين الأعمال المخلصة وتلك غير المخلصة لله. يبرز هذا السؤال بالمقارنة مع المدن الهندوسية حيث هناك حدود دينية وسحرية خارجية يجب أن تبقى خارج منازل أفراد طوائف المنبوذين. ومن الصعب، اعتماداً

(٨٦) Gaborieau, «L'Islamsation de l'indeet l'Asie orientale,» pp. 30-31.

على هذا الدليل الوحيد المتوافر، الوصول إلى نتيجة محددة[87]؛ لكن يبدو بحسب الباحث الوحيد الذي أثار هذا السؤال بخصوص شاه جهان أباد[88]، أن الاختصاصات غير النظيفة كانت تُدفع إلى أطراف المدن، ولكن ليس خارج الأسوار، بل تبقى داخلها، كمحالّ المشروبات والمسالخ؛ ولا يبدو أن هناك خطاً دينياً سحرياً محدداً يفصل بين الداخل والخارج، كما كان في حالة الهندوس. وعليه فنحن بحاجة إلى أبحاث إضافية للوصول إلى معرفة حقيقية بحدود المدينة.

الرسم الرقم (٨ ـ ٧)
مخطط ومقاطع



١ ـ الديوان العام؛ ٢ ـ سراي جهان آرا بيغم؛ ٣ ـ مسجد فاتح بور.

---

(٨٧) المصدر نفسه، ص ٣٠ ـ ٣١.

(٨٨) Naqvi, «Shahjahanabad: The Mughal Delhi: An Introduction,» pp. 147-148.

٧ ـ طُرُز محلية ومستوردة: الهندوس والمسلمون

أخيراً، يجب أن نبحث في التخمينات حول الطُرز التي استعملها المسلمون لبناء مدنهم في الهند. استند معظم ما قد كُتب إلى فرضية أن هناك تقليدين ثقافيين منفصلين، إسلامي وهندوسي، يعبّران عن نفسيهما بوضوح من خلال نصوص كلاسيكية كتبت على التوالي بالفارسية والسنسكريتية.

بالاستناد إلى هذه الفرضية، لدينا من جهة الباحثون الذين يذهبون إلى أن المسلمين الهنود استخدموا المعماريين الفرس ومهندسي المدن وأن جزءاً من مدنهم قد بني وفق طرز إيرانية ولا تدين بشيء للسياق الهندي. تلك هي، على سبيل المثال، حالة مدينة فيروز أباد في الدِّكَّن، وفق جورج ميتشل، حيث المخطط المربع يشبه ذاك الذي في هرات، الذي «لا يمكن فهمه إلا في سياق التراث الفارسي»[٨٩].

ومع ذلك، ففي بعض المدن الأخرى كان الطراز الهندي واضحاً. وبحسب ستيفان بليك، فإن شاه جهان أباد ـ ذات المخطط القوسي حيث القلب فيها هو قصر الإمبراطور في الزاوية الشمالية الشرقية ـ إنما تستنسخ عن قصد الطراز الهندي ولا تدين بشيء لأي إيحاءات فارسية[٩٠].

أما بالنسبة إلى معظم المدن الأخرى، مثل بيدار مع مخططها الدائري، فمن الصعب إطلاق أحكام قاطعة في شأنها. وكما هو متوافق عليه عادة[٩١] فهناك في الغالب تركيب ما بين تقليدين ثقافيين. أضف إلى ذلك أنه من الصعب تتبع مصادر العناصر المختلفة المكونة لكل حالة، إذ إن التقليد، على عكس البنى الأيديولوجية الحديثة للأصوليين، سواء الهندوسي أم المسلم، غير متعارضين على النحو الذي نتوهمه في العادة، بل إن التشابهات التي تظهر، على سبيل المثال، في التراتبية الاجتماعية والمكانية، تجعل من الصعوبة بمكان تتبع الأصل الدقيق لمعلم معين. خذ على سبيل المثال فرضية أن المدينة الهندوسية التقليدية كما المدينة الإسلامية قد ارتكزت على مركزية قصر الملك محاطاً بأهم الأبنية الدينية؛ هذه المباني المركزية ميّزت أيضاً الجزء العلوي من المدينة الذي تقيم فيه الطبقات العليا، أما الطبقات السفلى فقد جعلت في الجزء الآخر من المدينة، أو حتى خارجها.

---

(٨٩) Michell, «Firuzbad: Palace City of the Bahmanis,» p. 190.

(٩٠) Blake, *Shajhanabad: The Soverign City in Mughal India*, and Gaborieau, «L'Islamsation de l'indeet l'Asie orientale,» pp. 32-34.

(٩١) Michell, Ibid, and Petruccioli, ««Ad Quadratum»: Notes on Deccani Town Planning».

الرسم الرقم (٨ ـ ٨)

في مشهد متخيّل لدلهي القديمة يعود إلى العام ١٨٥٨



يبدو في الرسم منطقة سوق «تشاندني تشوك».

خاتمة

يُبرز هذا المسح المختصر، في آن معاً، غنى المجال الذي تمثله المدن الإسلامية في الهند، وندرة الدراسات فيه. وعليه فمعظم ما فيه يتوجب إنجازه في الغالب. في وسعنا الملاحظة أن الباحثين ركزوا على مدن قليلة كانت في معظمها عواصم، كدلهي التي لها صدارة المكان. ولعل الجزء الأعظم من الدراسات قد خصص لفاتح بور سيكري، المدينة المهجورة وغير النمطية التي لطالما فتنت المؤرخين لصلتها بعقائد

السلطان أكبر السياسية ـ الدينية. ولكن من غير المؤكد أن هذه الحالة الخاصة تضيء بما يكفي لفهم التاريخ المديني الهندي الإسلامي. فما زال ينقصنا دراسات مفصلة لعواصم مغولية أخرى مثل أغرا ولاهور ستكون ذات فائدة أكبر. كذلك اختيرت المدن الصغرى مجالاً للدراسة على نحو انتقائي. أما مدن المستوى الوسطي فقد أهملت تماماً وهي تحتاج إلى المزيد من البحث. ومن المثير فعلاً أن تكون المدن الصغيرة (القصبات) قد درست في الغالب على نحو أفضل من المدن الكبرى.

وفي خصوص موضوعات البحث، نحن بحاجة إلى مزيد من الدراسات حول إدارة المدن ونسيجها وتوزع الجماعات والطوائف فيها، وبوجه عام دراسات حول الاعتبارات الدينية التي تتداخل في تعريف البنية الداخلية للمدينة وحدودها الخارجية. ولاستكمال ذلك، لا بد من تطوير أنثروبولوجيا مدينية للهند المسلمة.

أخيراً، وعلى عكس الاتجاه الراهن من المواجهات الدينية، يجب التشديد على التشابه بين تقاليد الهندوس والمسلمين؛ فبهذه التشابهات فقط يستطيع المرء فهم كيف يستطيع أتباع الديانتين العيش معاً في المدن نفسها وكيف تشاركوا في بنائها وتطويرها. ولنورد في نهاية هذا الفصل حالة لاهور؛ فقد شيّدت على يد السلطانين أكبر وجهانغير، وأبقي على تصميمها النمطي كعاصمة مغولية؛ وظلت لأكثر من نصف قرن حتى عام ١٨٤٩، عاصمة لمملكة السيخ؛ وكانت حتى نهاية الحقبة البريطانية ذات أكثرية سكانية من الهندوس، الذين توجّب عليهم المغادرة حين جرى التقسيم. فقط بعد عام ١٩٤٧ أصبحت لاهور مسلمة كلياً تقريباً، مع استثناء واحد لمجموعة صغيرة من طائفة «الهندوس المنبوذين»، وبخاصة النساجون منهم، الذين تحولوا إلى المسيحية، واستمرت معاملتهم من المسلمين كمنبوذين.

مراجع إضافية

Ali, Athar. *The Mughal Nobility under Aurangzeb*. Bombay: Asia Publishing House. New Delhi: Oxford University Press, 1997.

Cole, Susan. *Indian Maps and Plans from the Earliest Times to the Advent of European Surveys*. New Delhi: Manohar, 1989.

Gaborieau, Marc. (a) chap. 2, The Indian States: The Sultunates; (b) chaps. 5-10, The Moghul Empire (1556-1739).» in: Claude Markovits (Trans. and ed.). *A History of Modern India, 1489-1950*. London: Anthelm Press; Paris: Fayard, 1994.

_______. *Ni Brahmanes ni ancetres: Colporteurs muslumuns du Nepal*. Nanterre: Societé d'ethnologie, 1989.

Hambly, R. G. G. *Cities of Mughal India: Delhi, Agra, Fatehpur Sikri. Hambly*. New York; Delhi: Putnam, 1988.

_______. «Towns and Cities: Mughal India.» in: Tapan Raychaudhuri and Irfan Habib (eds.). *The Cambridge Economic History of India. V. 1: c. 1200-c. 1750*. Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1982.

Markovits, Claude (ed.). *A History of Modern India, 1480-1950*. Paris: Fayard, 1994.

Raychaudhuri, Tapan and Irfan Habib (eds.). *The Cambridge Economic History of India: vol. 1: c. 1200-c. 1750*. Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1982.